



العدد ٨ مجلد ٢ شِباع الحِكْمَة يَجْزِبُنَا إِلَيْكَ ابريل ١٩٢٨

الاسر او غيا

أى التنجيم وأثره فى تحديد التصورات الانسانية على مر العصور

١ - تمهيد

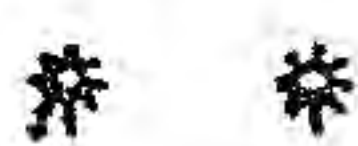
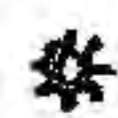
لقد كان للأساطير والخرافات آثار ظهرت فى التاريخ الانسانى حتى ليخيل
الينا أن هذه الاساطير قد تأصلت جذورها فى صميم النفس الانسانية وانها قد
بلغت منها الاعماق. فان ضعف الانسان عن أن يحتكم فى سير الحوادث الكونية،
وعجزه عن أن يهبى للظواهرات مساراً يرضى تصوراتيه وأحلامه، وعدم قدرته على
أن يدرك مصيره وقلبه، جماع هذه الاشياء قد غرست فى ذهنه فكرة أنه ليس
أكثر من العوبة تتقاذفها أيد قوية قاهرة، بعيدة عن ادراكه، قصية عن مدار
معرفة، حتى لقد تعذر عليه، مع تصويره هذا، أن ينظر فى تلك القوة القاهرة نظرة
القانع بأنها من الاشياء التى يمكن أن تتحد مع الحياة ذاتها وتكون جزء منها.
فلماذا، مثلاً، يمكن أن يحطم هذا الهيكل الانسانى على كمال بنائه ومثانة تركيبه،

بل لماذا تفنى الحياة ذاتها ، اذا هي اصطدمت بأتفه توافقة الطبيعة التي لا نخلص من التأمل فيها إلا بالسخرية منها ، ومع هذا فالإنسان عاجز عن أن يقاومها أو ينتصر عليها في معركة يشهرها ، أو حرب يعلنها ، ولو في خطرات الوهم ، ومصورات الخيال ؟ ومع هذا فان كل ما يتضمن هذا الكون الفسيح من الظاهرات له قواعده وسننه ، التي لا تحدث إلا خضوعا للسببيات الطبيعية التي لا تتبدل ولا تتغير . أو بالأحرى يمكن القول بان ما يدعى « مصادفة » ماهو إلا خيال ووهم لا حقيقة له . ومع هذا فان لنا أن نتساءل . اذا كان من الصعب على الذين عرفوا قواعد المنطق واستوعبوا النظريات ، وعلى الذين وقفوا على نواميس الطبيعة وقضايا الفلسفة ، أن يفقهوا حقيقة المبادئ الأولية التي تخضع لها تلك القوات العظمى والحوادث الكبرى التي تترك في الحياة الانسانية آثارها المحتومة البعيدة النتائج ، فالى أى حد تذهب هذه الصعوبة بالذين لم ينتشروا ولم يعرفوا شيئا من مبادئ العالم الأولية ، وبالسلالات الانسانية التي هي أقل ذكاء وقدرة ذهنية من السلالات العليا ، والتي عاشت خلال عصور التاريخ الاولى ، اذا أرادوها أن يتفوا على بعض تلك المبادئ التي تربط بين الظاهرات الطبيعية في أبسط حالاتها ؟



٢- أصل الاساطير والخرافات .

ان عجز الانسان عند ادراك وجوه الارتباط التي تصل بين ظاهرات الطبيعة المختلفة ، هي الاصل الذي نشأت منه الاساطير . فالقوات السرية ، والخير والشر ، والارواح ، كل هذه الاشياء وملابساتها ، انما تحكم في الغايات التي يرمى اليها الانسان في الحياة وفي مستقبله بعد الموت ، بوسائل تختلف مقدرة الانسان في ادراكها باختلاف الحالات والظروف . لهذا كان من الضروري أن يستدرج الانسان تلك القوات الخفية ليربح عطفها عليه وان يعقد معها معاهدات السلام والتفاهم ، بان يبحث عن أصولها الخفية التي تبث بها عليه فتنزل به الكوارث أو تحبوه السعادة والنماء .



٣- نشوء الاسترولوجيا أى التنجيم

الاسترولوجيا ، لدى الواقع ، هي مجموعة تلك الخرافات والاساطير التى يربط الانسان بينها وبين النجوم . وهى فى حقيقةها تقوم على تصور عقلى يمكن أن يقال فيه إنه أقرب الاشياء تأسلا فى عقل الانسان فى حالاته الفطرية الاولى . فان النجوم إذ تستوى من فوقنا على عرشها السماوى وفي عظمتها وبرائها وأبهتها المغرية ، وانفرادها بذلك العالم الذى لن يتناول اليه شئ من الارضيات ، ولا يمكن أن تتطال اليه يد البشر أدراهمهم ، فى عزلتها الابدية وفي أغوار اللانهاية ، لا بد من أن تكون قد كونت من التصورات الانسانية صوراً أوحى الى الانسان الاول ، عند ما بدأ يتأمل فى الزمان والحياة والنظام الطبيعى ، بأن تلك العوالم التى لا تزيد على الايام إلا بهاء ولا يشب الزمان إلا ليجدد من شبابها وعظمتها ، لها الاثر الاكبر فى الاشياء والنظمات الارضية ، فى تصريف الرياح وتحديد المناطق وفى غل الخيرات وفى صعود الانسان ونحوسه ، وفى نجاحه واهفاقه ، على نفس الصورة التى نلاحظ بها تأثير الشمس والقمر فى تغيير مناخ الكرة الارضية وفى احداث المد والجزر على تواتر الايام وكر الاعوام .

على أن فى العقل الانسانى نزوة غريبة تدفعه الى معرفة المبادئ والنواميس التى تعود اليها الظاهرات والحوادث الطبيعية ، ونزعة تسوقه الى أن يعثر على الحلقات التى تصل بين ما يحدث حفافيه من الظاهرات التى قد تقع على وجه التواتر والاطراد حيناً ، وعلى وجه التناقض والتضاد حيناً آخر .

فاذا حدث أن وقع جليد وبرد قارس ، ثم تبع ذلك زلزال محطم وهزات أرضية محتاجة ، فإن الانسان مسوق بطبيعته لان يصل بين بعض هذه الظاهرات وبعض . وكذلك الحال اذا ظهر مذنب يضىء الليل بوجهه وضياؤه وترامى فى جوانب الفضاء ، ووقع مع ظهوره وباء قتال أو مرض يذهب بالارواح ولا يبقى على شئ ، فإن العقل فى حالاته الفطرية الاولى كان ينزع دائماً الى أن يجعل لظهور المذنب ضلع من المسئولية فى ظهور الاوبئة والحوادث الجسام التى يعانىها أهل الارض . كل هذا وتلك الكرات السديمية السابحة فى الفضاء تدور فى أفلاكها الابدية

بريئة من ذنوب أهل الأرض بعيدة عن أن تحمل مسؤولية ما ترميهم به الحياة من أ كدورها واحزانها ، ساجدة في عالمها الاثيرى المملوء بالجمال الفتان الذى لم يعرف بعد ما هى الأرض ولا ما تحمل من خلائق بشرية أو غير بشرية .

ولامراء مطلقا في أن الاسترولوجيا قد نشأت من مشاهدات مثل هذه حاول الانسان أن يربط فيها بين ظاهرات السماء وحوادث الأرض . ولقد اتخذ المنجمون بضعة من النجوم الشديدة الضياء ومن الكوكبات المتقاربة ومن واقع السيارات والقمر والثوابت ، واضع يستخلصون منها ما ينكبون به العالم من نبوءات . ولقد استحكم هذا التصور من عقول الناس في العصور القديمة استحكاما رمى بأمم من أرقى الأمم التى شهدتها الأرض ذكاء ومقدرة في أحضان الاسترولوجيا فاضلتهم ازمانا طويلا واحتكمت في عقولهم دهورا مديدة .



٤ — تقدم الاسترولوجيا

لقد نشطت تصورات الاسترولوجيا وربت وتأت أكلها بين الأمم الشرقية منذ أقدم العصور . ولم يكن علم الاسطرنوميا — الفلك — في تلك الايام بأزيد من وسيلة لقياس الزمان وتحديد الاوقات ، او بالآخرى « علم ميقاتى » ، ولم تستخدم رصد الكواكب فى شىء اللهم إلا فى تحديد الازمان وحسابها لمعرفة ايام الاعياد والحصاد . أما الاسترولوجيا — وهى تلك التصورات التى يمكن أن تعتبر الاخت العاقر لعلم الاسطرنوميا — فكانت فى منزلة ، لا يحسدها عليها علم الفلك وحده ، بل قد تحسدها عليه بقية العلوم والمعارف الانسانية جمعاء اما اقدم المنجمين الذين يروى لنا التاريخ اخبارهم فنشؤوا تحت سماء بلاد الكلدان القديمة ، ومن ثم ذاع فن استقراء النجوم بين المصريين والبابليين . ومن هنالك غزى ذلك الفن بلاد الاغريق والامبراطورية الرومانية ، وفى أواخر العصور الوسطى ، انتشر فى بقية بقاع أوروبا . وكان العرب والفرس والصينيون من انبغ الأمم فى قراءة النجوم ، ومنذ عهد قريب كنت تجد فى البلاط المملوكي

لعاصمة بلاد الصين وظائف كثيرة يملؤها نفر من الذين كُن يطلق عليهم هنالك اسم «المنجمون الملكيون» يؤدون وظيفة التنجيم للامبراطور الصيني، ويستقرؤون له في صفحة السماء الصافية ا كدار ماتملى عليهم تصورات الوهم وخطرات الخيال. بل أنك كنت تجد في الجامعات التي قامت في جنوب أوروبا معاهد لتدريس الاسترولوجيا، درس فيها اساتذة اعترفت تلك الجامعات بأستاذيتهم، ولم تلغ تلك المعاهد الا في اواسط القرن السابع عشر، في حين أن الملوك والامراء الذين أحتركوا في رقاب الناس في تلك الأيام، لم يقربوا من عروشهم الا أولئك الذين كانت تزيع نظراتهم في فضاء الكون الاوسع ليستخلصوا من النجوم سر الموت والحياة، ومستقبل الامم الانسانية، دون العلماء الذين عكفوا على درس اسرار الطبيعة وقضوا أعمارهم في الفقر والحاجة إرضاء لنزعات عقولهم الكبيرة، فكان للانسانية من يؤسهم وشقايمهم شيئان متناقضان: سبة الأبد، والسعادة العمالية.

* *

٥ — الاعتقاد في كشف الطوالع

يدعى كشف الطوالع في الغرب «هوروسكوب» - Horoscope - ومحصل هذه الخرافة الشائعة أن المنجمين يعتقدون أن مواقع النجوم لدى مولد أى إنسان تؤثر أثراً محتوماً في كل حياته. ولقد تدخلت النجوم من هذه الطريق في كل الاعمال الانسانية. فلم يكن لانسان أن يقدم على مشروع كبير أو يبدأ رحلة من الرحلات الكبيرة أو يتزوج أو يرفع دعوى أو يعمل أى عمل من الاعمال ذات الاثر الواضح في الحياة، من غير ان يستدروحي النجوم. ولقد اعتقد فضلا عن هذا بان النجوم لها ضلع كبير في المسائل الطبية وفي التأثير في انتشار الامراض وعلاجها. وفي خلع الاسنان المريضة، وفي تركيب الديدان الطبية والفصد، اذا احتاج العلاج لامر منها. حتى لقد قيل بان وقوع القمر أو الشمس أو السيارات بالقرب في من موقع كوكبة من كوكبات السماء أو في برج من الابراج يكون له تأثير على بعض أعضاء من الجسم الانسانى دون بعض.

النصح والهداية في أعمالهم الدنيوية ، حتى انه لم يقدم قائد من القواد على أن يبدأ معركة من المعارك الكبيرة قبل أن يستمد الرأي من أحد كبار المنجمين . وكذلك كانت الحال لدى مولد أى طفل لعظيم من العظماء ، فان كشف طالعه كان من الأعمال الازلية التى تتوج بها حياته الدنيا . وكانت العادة أن يسجل فى دائرة تدعى دائرة كشف الطوالم ، كل ما يتعلق بحياة الشخص المكشوف عن طالعه ، ليستهدى بما توحى اليه به هذه الدائرة الخرافية فى كل أعمال دنياه .



٦ - كيف يرسم الموروسكوب .

يبحث أولاً عن تلك النقطة من منطقة دائرة البروج أو كما يدعونها البعض سمت الشمس ، التى كانت ترتفع فوق الافق فى نفس الثانية التى يقع فيها ميلاد الشخص المراد كشف طالعه . ثم تقسم السماء الى اثني عشر منزلة أو برجاً ويسمى كل قسم من هذه الاقسام باسم يقابل حالة من حالات الحياة الانسانية ، فقسم للحياة ، وآخر للحظ ، وثالث للصحة ، ورابع للزواج ، وخامس للانسرة ، وسادس للدين ، وسابع للموت ، وثامن للعظمة والمجد الدنيوى ، وتاسع للصداقة والعداء وهكذا الى أن تتم تسمية الاقسام جميعها . أمام واضع هذه المنازل السماوية فكانت ترسم فى دائرة تدعى دائرة كشف الطوالم ، ثم تعين عليها مواقع السيارات والشمس ليحمل الرائي بذلك على صورة عامة لمختلف المواقع التى تنزل فيها النجوم ونسبة أوضاع بعضها لبعض . وكان المعتقد أن كلا من تلك الاجرام فيها قدرة على إحداث تأثيرات عالمية قد تحدث سموداً ونحوساً فى حظوظ البشر . غير أن احداث هذه التأثيرات كان يتوقف حيناً على المنزلة التى يقع فيها الجرم ، واخياناً على علاقته الموضعية واقتراناته بغيره من الاجرام .

ولقد تعدت هذه المعتقدات الى الفنون فظهرت آثارها فى النقوش والزخارف حتى إنك لتجد أن أحد الشعراء قد اشار الى هذه الاشياء فى ابيات من الشعر قال فيها :

« ليسمت السماء منبهاً للورود وحدها ، بل فيها تنبأت الاشواق أيضاً . فان

ماتعقده الزهرة ، مقسمة انطاوط الحسنة السخية ، مجلد مارس ، نجم النحوس ، ويمزقه أجزاء وقطماً .»

وأشار بعض شعراء العرب ، واستشهد بقوله الفارابي الفيلسوف المعروف ، الى المعتقدات القديمة التي ورثوها عن خرافاتهم الاولى ، وان المنة الآلية قد بدلتهم منها بالتوحيد فاصبحوا يستدرون انما من الله دون أجرام السماء وسياراتها فقال

أصبحت أرجو انما منك وأمتري زحلا ونفس عطارد والمشتري
وكان الناس يمتقدون أن زحلا والمريخ من كواكب النحس ، وأن المشتري
والزهرة من كواكب السعد . وأن للقمر تأثيرا يتراوح بين السعد والنحوس ،
وهكذا كل بقية الاجرام . ولا جرم أن وضع دائرة الطوالع كانت تختلف باختلاف
الأمم ، لان لكل أمة وجهها من وجود الاسترولوجيا تختص به دون غيرها من
الامم . بل غالب ما كان يختلف المنجمون أنفسهم في طرق الكشف عن مخبات
المستقبل وحظوظ الامم والافراد .

٧ — مشاهير المنجمين

من المرجح أن يكون أشهر منجمي العصور القديمة كاهن « بعل » المسمى
« بيروسوس » (١) — Berossus — الذي تروى المدونات التي وصلت اليناعن
حياته أن كل نبوءاته قد تحققت وأن فراسته لم تخب في شيء . وكان بيروسوس
من الموهوبين بالطبيعة . فكان قوى العقل واسع الخيلة بعيد النظر ذا معرفة
بالقوات التي تدير نظام الطبيعة بمقدار ما عرف في زمانه ، وكان له نظرات في
الاشياء المستقبلية يبنها على أسباب ونواميس لها بعض المبررات العقلية . ولقد
أقيم له تمثال عند موته احياء لذكراه واحتفاظا بأثره الذي خلفه في أهل زمانه .
أما أكبر من ظهر من المنجمين في العصر الروماني فرجل يدعى « فرمانوس »
Firmanus — يقال إنه استقرأ النجوم فعرف منها اليوم الذي أسست فيه
مدينة روما وعرف اليوم الذي سوف تهدم فيه . ومن الحقائق التي لا يمارى فيها أن
صولا Sula قد أخبر « كاليغولا » Caligula تحقيقا عن الساعة التي سوف يموت فيها .

(١) كاهن بابلي ذاعت شهرته سنة ٢٧٥ ق . م .

أما الطرق الاسترولوجية - التنجيمية - التي ذاعت خلال العصور المتأخرة فمن المرجح أن يكون « فرميكوس ماترنوس » Firmicus Maternus أول من نشرها ووضع أسسها ، إذ كان يلقي فيها دروسا أقبل الناس عليها اقبالا كبيرا . أما شهرة العراف « نوستراداموس » — Nostradamus — وهو أكبر منجى القرن السادس عشر ، فقد تنقلت في منازل الزمان حتى وصلت الى عصرنا الحاضر . ولقد خصه ملكان من ملوك فرنسا بمطعما وحبواه بحبهما واحسانهما . أما نبوءاته فقد طبعت في كتيب أكب العالم المتمدنين على قراءته . وعلى الرغم من أن نوستراداموس قد مات سنة ١٥٦٦ فان تحقيق نبوءاته قد اعتقد بصحتها وانتظر وقوعها في أوائل القرن الثامن عشر ، والظن الغالب أن اعتقاد الناس بصحتها كان يظل ثابتا أزمانا طويلة بعد هذا التاريخ ، لو لم يصدر أمر بابوي في بداية القرن الثامن عشر ، حظر نشر هذا الكتيب ، لانه تنبأ فيه بسقوط البابوية . على أنك لا تستطيع أن تدرك مقدار ما تأثرت العقول بمثل هذه الاساطير منك إذا عرفت أن رجلا ممتازا كبير العقل واسع العلم مثل « كبلر » Kepler قد شغل نفسه زمانا بفن الاسترولوجيا . ولكن الظاهر أن اشتغال كبلر بهذا الفن لم يأت الا من طريق الفقر والحاجة طلبا للقوت ، وطالب القوت ما تعدى ، كما يقولون . ولنا في ذلك الامر بابي معشر ، العالم العربي ، أسوة . فانه اشتغل بالتأليف في تحويل المعادن الى ذهب ابتغاء الرزق ، وللاستعانة بذلك على مواصلة تجاربه الكيماوية المعروفة . فكأنه استعان بما نفقت سوقه ، على ما كسبت تجارته . وهكذا الناس في كل العصور انما تستغويهم الاساطير وتستهويهم السفاسف دون الحق الثابت ودون الابحاث العميقة التي ترفعهم فعلا فوق افق الحيوانات ، أجدادهم الاقربين .

ولقد صنع كبلر دائرة لكشف الطوابع للفيلد مارشال « وولنشتين » Wollinsein وكان من كبار المعتقدين بصحة هذا الفن ، ومن أشدهم اقتناعا بصدق موحياته ، ولكن على الرغم من اطالة النظر في مواقع السيارات على دائرته التي حملها ليل نهار ، فانها مع الاسف لم تنذره « بالمدية » المحدودة التي اغتالت

حياته في « البحر » إحدى مدن « بوهيميا ». ولا تزال تلك « الدائرة » محتفظاً بها إلى الآن ، وهي مصنوعة من الذهب الخالص ، وكان القائد الكبير يحملها على الدوام في عنقه كحليته وكهويذته يتقى بها شر ما تخبأ الأيام .



٨ — مساوىء الاسترلوغيا

ومن الطبيعي أن فنا كالأسترلوغيا ، بعيداً عن كل ما تقوم عليها حقائق هذا الوجود، يحدث كثيراً من المساوىء والشروء، لانه في الواقع لا يساعد ذوى العقول الضعيفة على ادراك حقيقة يسترشدون بها ، أو الاستنارة بشيء من القواعد التي تنير لهم سبيل الحياة . ولن يكون أثر الأسترلوغيا شيئاً بقدر ما يكون في زمان تملك في العقل فكرة أن الشر واقع وأن المصائب لا محالة حالة بالأمم والأفراد . فكم من دم أهرق وكم من حياة اختطفها الموت ، تحت تأثير الاعتقاد بنبوءات لا يقبلها العقل ولا تسلم بها البديهة .

ولقد يروى لنا التاريخ أن منجمى الأبلطة الملوكية كانوا يمهرن عادة في فن إبعاد الأعداء واقصائهم والتخلص منهم . فمن المعروف مثلاً أن منجم بلاط « تيبيريوس » Tiberius الروماني قد استطاع أن يقضى على أعداء ذلك الطاغية بأن أوقعهم في أشياء امتدت اليهم من طريقها فأس الجلال . ومن الذائع أن الملك إريك الرابع عشر Eric XIV قد أعدم وزيره « ستور » Sture وكل أعضاء أسرته سنة ١٥٦٧ للأسباب إلا لان منجماً قد أخبره انه سيعزل عن عرشه ، وان الذي سيعزله رجل اشقر الشعر يعيش في بلاطه . ومن سوء الحظ أن الوزير وكل أهله كانوا شقراً ، فامتدت اليهم يد الموت من حيث لا يعلمون . على ان امثال هذه الحوادث هي لدى الواقع من أبسط الحوادث التي يرويها التاريخ ، اذا قيست بحوادث كبرى كانت فنون الأسترلوغيا سبباً فيها ومنبتاً لها .



٩ — الفرع من انتهاء العالم

إن النبوءات المتوالية عن انتهاء العالم وفساد النظام الكوني ، قد أحدثت من

المساوىء والكوارث ما يطول بنا شرح آثاره . على أننا نأتى هنا على بعض الامثال التى تفصح عن حقيقة ما أخذ الناس من خوف ورعب وما تملكهم من فزع وهلع عند ذبوع نبوءة كاذبة يلقى اليهم بها منجم مفتون .

في سنة ١٥١٨ اذاع ستوفلر Stoeffler وهو اذ ذاك من أشهر المنجمين المعروفين الذائى الصيت فى أنحاء أوربا ، نبوءة بان طوفاناً عظيماً سيفنى الارض في سنة ١٥٢٤ ، وانه لا بد من أن يخربها ويذهب بما عليها من حياة . ولقد حدس أن السيارات زحلا والمشتري والمريخ ستجتمع جميعاً فى برج الحوت فى شهر فبراير من تلك السنة ، وان هذا فى وهمه ، لا بد من ان يحدث طوفانا بمحتاحا وكوارث مخربة .

واقعد ملك الجماعات من جراء هذه النبوءة فزع شديد وهلع مضن ، وكان كلما اقترب موعد الكارثة زاد هلع الناس واشتدت مخاوفهم ، بل كاد كثير من الناس يفقدون توازنهم العقلى . فوقف دولاب التجارة والمعاملات ، وترك الزارع حقولهم نهب الخراب والبوار ، وامتنع الناس عن العمل فى كل مكان ، ولم يف أحد من الناس ماعليه من دين ، وأخذ المكتنزون يسرفون فى تبديد ما جمعت أيديهم فى تحصيل ما يستطيعون تحصيله من لذائذ آثمة . وحاول الاغنياء أن لا يقاسموا الفقراء المستضعفين نهايتهم المحزنة . فهاجر بعضهم الى رؤوس الجبال يعتصمون بها حيث لا عاصم من مد ذلك الطوفان ، وابتنى البعض الآخر سفناً كبيرة الاحجام قوية الدروع على نسق سفينة نوح . وعمد بعضهم الى عيش البذخ والانسراف لينفق آخر فلس يملكه قبل حلول الكارثة . ونزلت على البعض الآخر سكينه التقوى والخشوع فاستسلموا للقضاء والقدر . وكان الدنيا فى خلال هذه السنوات التسع التى مضت منذ التنبوء بحلول الكارثة حتى ساعة حلولها ، قد اقلبت بيارستاناً عاماً ما ترى فيه من شيء اللهم الا صور التطرف ، إما الى الرذيلة القصوى ، وإما الى جنون العبادة والتقوى .

وحل من بعد ذلك شهر فبراير سنة ١٥٢٤ ، ثم انقضت أيامه يوماً بعد يوم والدنيا تسير فى هدوئها الابدى كما سارت منذ أبعد الازمان ، فلم يأت طوفان

ولاحلت كارثة . وهنا تنفس أهل الدنيا الصعداء ورجعوا الى دنياهم بعد أن انصرفوا سنووات الى أخرهم .

وكان يواكيم الاول الالماني — Joachim 1 أمير البلاتينات منجماً ، وأسس له مرصداً في أحد أبراج قصره . وفي ساعة من ساعات الشؤم والويل أخبره منجمه « يوهانس كاريون » Johannes Carion وكان يثق به كل الثقة ، أن « ستوفلر » قد أخطأ في حسابه ، وأن الطوفان الذي تنبأ به سيقع في يوم ١٥ يولية سنة ١٥٢٥ ، وأن هذا الطوفان لا يعم سطح الارض كما قال ، ولكنه سيفشي أرض ألمانيا وبرلين كوان Berlin-Coln على الاخص ، وهو القصر الذي كان يعيش فيه الامير . فصدرت الاوامر المشددة بأن تظل هذه النبوءات في طي الكتمان الشديد ، حتى اذا كان أصيل يوم ١٥ يولية سنة ١٥٢٥ . ظهرت غيوم ملبدة في الافق الغربي منذرة بويل شديد . ففتح باب القصر الملكي على مصراعيه وخرج منه عدد من المركبات الملوكة والخيول تعدو بهاملاً فروجها ميممة شطرتل « كروزبرج » بجوار براين ، كان للامير وأهله وحاشيته بمثابة جبل أارات الذي آوى اليه الناس اتقاء لطوفان نوح . ولقد ظل العوام ينظرون الى هذه الحركات نظر المشدوه الخائف الذي يتوقع كارثة لا يعلم أين منبتها . ولما عرف السبب الذي من أجله فرت الاسرة الملوكة والحاشية والوزراء تسرب الفرع الى القلوب وتملك الهلع الافتدة ، وامتزج الخوف بشعور من الاحتقار والسخرية من الامير الذي أراد أن ينجو بنفسه من غير أن يندر عاياه بالخطر المحقق بهم ، بل تركهم يموتون وحشرات المدنية ، كأ أنهم سواسية في القيمة عنده . وعند ما بدأ الليل يرخي سدوله هبت عاصفة ليست بذات شدة . ولما ودعت شمس ذلك اليوم قمة « كروزبرج » بدأ الشخص الوحيد الذي يحق لنا أن ننته به بوصف الرجولة ، وكان من الاسف سيدة من يضرب بشجاعتها الامثال ، وهي اليصابات Elizabeth أميرة «البلاتينات» يشك في حقيقة النبوءة ويشجع بقية الجمع على العودة الى القصر ، قائلة بأنه من الظاهر أن نهاية العالم لا تقع في ذلك اليوم .

ورجعوا يجرّون ذيول الخنزى مرموقين من الرعية بعيون تم عن الاحتقار
والسخرية . ولكن صودف أن عربة الأمير لم تكد تدخل فناء القصر حتى انقضت
صاعقة قتلت سائق المركبة وجيادها الأربعة . فجعد الدم فى عروق الأمير ،
وكاد يذهب ضحية وهمه وتخيلاتة الغريبة

*

* *

١٠ — استخدام الاسترلوغيا .

لم يقتصر الاعتقاد بفن الاسترلوغيا على العوام وحدهم ، بل أن رجلاً من
أكبر من يذكر التاريخ سعة فى العقل وشجاعة فى القلب ورسوخاً فى الإيمان ،
وكان منهم لوتر ، قد آمنوا بتأثير الكواكب ، وفيما يتنبأ به المنجمون . على أن
من رجال الكنيسة ومن الأمراء فئة لم تكن تعتقد بصحة ما يوحى به المنجمون
وكثيراً ما نفى منجمون من بلاد كثيرة كان من حسن حظها أن يقوم عليها رجال
من هذا الطابع على رأس الحكومات وفى الكنائس .

على أن جنون الوهم الذى كانت تبثه فنون الاسترلوغيا قد ظل مؤثراً آثاره
المحتومة حتى أواخر القرن السابع عشر . ويعتبر جان باتيست موران
Jean Baptiste Morin الذى توفى بباريس فى سنة ١٦٥٦ آخر من يذكر التاريخ
من كبار المنجمين .

غير أن للاسترلوغيا وجهاً واحداً من وجوه النفع لا يجدر بنا إغفاله . فإن
هذه الفنون ساعدت على ترقية علم الفلك — الاسطرولوجيا — وعلى وضع قواعد
الأولى . مثل الاسترلوجيين فى هذا كمثل الألكيماويين Alchemists الذين
سمعوا عبثاً فى معاملهم وراء الحصول على « حجر الفلاسفة » الذى كان من شأنه
أن يحبب الناس بالحياة الخالدة على معتقدهم ، وفى تحويل المعادن الدنيا إلى ذهب
خالص ، فأنهم نجحوا أحياناً فى أستخلاص بعض قواعد فى علم الكيمياء لا يزال
يعترف الآن بما لها من الشأن والخطار . فإن تحديد مواقع النجوم وحساب دوراتها قد
وضعت القواعد الأولى لعلم الاسطرولوجيا من طريق الاشتغال بالتنجيم .

* *

١١ - انتعاش الاسترولوجيا في القرن العشرين

ولكن بأي شيء نملل انتعاش هذه الفنون في عصرنا الحاضر ؟ بأي شيء نملل ذبوعها اليوم وسط تلك المستكشفات العلمية والفنية التي نحبونها بها ابحاث العلماء كل يوم ؟ ولا جرم أن انتعاش هذا الفن الخرافي في القرن العشرين لمن أعجب ما يقع عليه الباحث في خصائص العقل الانساني .

فكثيرا ما نقرأ في الجرائد تحت عنوانات كتبت بحروف كبيرة كلمات تسترعى النظر ، مثل فلان يقرأ مستقبلك ويعرف ماضيك ، والنجوم تحكم سير الظواهر الطبيعية ، والكواكب تقسم الحظوظ ، الى غير ذلك من الكلمات الجوفاء التي تدل على سفاهة ما بلغ اليها الناس في العصور الاولى . فان هذه الاعلانات تظهر في كل مكان وفي أرقى النشرات الدورية وبين ارقى الامم . بل الظاهر ان الذين يتخذونها وسيلة لترويج بضاعتهم ينجون من رواها ربحاً طائلاً . وبهذا نرى أن فن كشف الطوالع وقراءة الحظوظ الذي هو من مخترعات القرون الوسطى ينتعش مرة أخرى في القرن العشرين ، عصر العلم الطبيعي القائم على التجربة والاختبار . قال برونوفلوجل الفلكي المعروف .

« منذ عهد قريب عين أحد الفلكيين الحديثي العهد في أحد المراصد الفلكية بمرتبة « ملكي » قدره خمسة وأربعون جنيهاً في العام ، ولما ناقش الذين عينوه في ضؤولة المرتبة قال له أحد مشهورى العلماء المعروفين « خير لك من الاشتغال بالعالم أن تؤسس بيتاً للتنجيم في حي من الاحياء الشهيرة في المدينة ، وأنت تجمع ثروة كبيرة في أقرب حين » وهذا الكلام صحيح من كل الوجوه



١٢ - الاسترولوجيا كما هي اليوم

لقد ذاع في أكبر عواصم أوروبا منذ عهد قريب مثل لندن وباريس وروما وبرلين ضرب من الاسترولوجيا قام به منجمون وجدوا من كثير من المتعلمين صدرواً رغبة روجت بضاعتهم وأعلنت عنها بكل الوسائل على أن حظ النساء من حياة

المنجمين كان أضاف حظ الرجل . ولقد جرت عادة أحد المنجمين في لندن أن ينشر خطابات كتبت اليه من رجال وسيدات من أنبل أبناء هذا العصر وسيداته الذين يشغلون في المجتمع الانجليزي أكبر مكانة ولهم أعظم احترام . على أن هذا المنجم لم يقتصر في نشراته على اذاعة الخطابات التي ترد عليه بل كان يختم كل نشرة بما يأتي :

« ارسل شأننا واحداً ومعلومات كافية عن تاريخ ميلادك ، فيصاك كشف طالعك . ولا شك أنك ستدهش بما سوف تجد من دقة وضبط في معرفة ماضيك والكشف عن مستقبلك »

ومن السهل على غير المؤمنين بصحة هذه الصناعة أن يقابلوها ببسمات الاحتقار والسخرية. غير أن انتشار الفكرة في التنجيم والاعتقاد بصحتها انتشاراً كبيراً في هذه الايام يدعو الى شديد الانتباه من أن تنال الجماعات موجة من موجات الجنون بالاساطير شبيهة بتلك التي جرفت أمامها الجماعات في القرون الوسطى .

١٣ - ماهي الحقائق الراهنة

ان الفكرات المادية التي أخذت تستمكن من العقول خلال العقود الاخيرة من القرن التاسع عشر ، قد أحدثت في نفوس الناس شعوراً بالحاجة الى النزوع الى الناحية التي تقابل جهود الماديات من التصورات الذهنية. ولقد عانى علماء الفلك المشهورين في أوروبا في الاعصر الحديث أشد المتاعب مما كان ينهال عليهم من خطابات يسأل فيها مرسلوها عما يعرف عالم الفلك من تأثير السيارات التي تجوب السماء في زمان من الزمان . ولا شبهة من أنهم ينزعون بهذا الى فن التنجيم وتخيلين أن علماء الفلك يستطيعون أن يزودوهم بما تدل عليه حركات النجوم في السماء من نحوس أو صعود. على أن بعض المشتغلين بالاجتماعيات من علماء الفلك قد دعوا بمثل هذه الخطابات عناية خاصة وأخذوا يجيبون عليها ليرشدوا مرسلوها الى أن النجوم والسيارات بعيدة عن الارض بعدا عظيماً بحيث لا يمكن أن يكون لها تأثير ما على أهل هذا السيار . بل زادوهم علماً بان الجرم الوحيد الذي يمكن أن يكون له

علاقة مباشرة بالأرض هو الشمس. بدليل أن حرارة الشمس هي التي تبعث الحياة وان الايام التي يكدر فيها الجو وتغيب الشمس يأخذ كثير من الناس انقباض شديد وحزن عميق لا تعرف من باعث له، وان حوادث الانتحار تكثر عندما تغيب الشمس عن أفق الأرض أو تحجبها الغيوم الملبدة. وكذلك القمر فن له تأثيرا ضئيلا على تغيرات المناخ والطقس ولكنه تأثير جزئي لا يحدث من أثر كبير في الحياة الانسانية.

وعلى الرغم من هذا فان هذه الحقائق لم تكن كافية لان تصرف الناس عن غيهم وأساطيرهم. ولا جرم أن هؤلاء النجمين يباشرون صناعتهم هذه وهم أشد الناس اقتناعا بان الناس أحرص على أن يندعوا منهم على أن يرشدوا.

« * »

١٤ - تأثير كبلر

ولا مريّة مطلقا في أن من المنجمين فئة كانت تعتقد في صحة فن الاسترولوجيا اعتقادا بريئا عن الخداع والوقية بالناس. أما حديثهم التي ياجأون اليها فكامة شكبير المعروفة. «ان في السماء وفي الأرض من العجائب يهوراشيو، أكثر مما في أحلام فلسفتكم». ولا جرم أن الحقيقة تبعد عن هذه الأقوال الشعرية التخيلية بقدر ما كانت تبعد فكرة شكبير عن الاسطرنوميا. غير أنه مما يجعل موقف رجال الاسترولوجيا قويا أن رجلا من أكبر رجال العلم الحديث كان منجما. ولعني به كبلر المعروف. وفي الحق أن هذا العالم الكبير قد اشتغل بالتنجيم زمانا، ولكن عن عقيدة وإخلاص. وليس أدل على هذا من رسالة نشرها سنة ١٦١٠ ولقد عاش كبلر من سنة ١٥٧١ إلى ١٦٣٠ وكان صورة مكبرة من نزعات عصره ومثالا للخيالات التي قامت في اذهان أهله. غير أنه لا يداخلنا شك مع هذا في أن كبلر لم يلجأ إلى الاشتغال بهذه الاساطير إلا مسوقا بحكم الجوع والفقر. فانه على الرغم من سعة علمه ونبوغه واكبابه الجدى على البحث العلمى كان معدما، ولا شك في أنه كان يموت جوعا لو لم يلجأ إلى مثل هذه الوسيلة ابتغاء أن يعيش بكسرة يسيفها. فان وزير المالية كان قد قطع عنه مرتبه في زمان اشتدت فيه الحروب

واستحكمت حلقات الازمة المالية . ولقد عجز صديقه المارشال وولنشتين عن أن
يمد له يد المساعدة في محنته . وفي سنة ١٦١٠ اضطر كبلر الى أن يسافر الى دريجنسبرج
مدفوعا بعامل العوز وخشية أن يموت جوعاً . غير أن هذا الانهالك أثر في صحة فمات
هذه صورة من معتقد غشى على العقل الانساني ازمانا طرأ الا وكان له أكبر الاثر
في تصوير الاتجاهات التي اتجهت فيها الجماعات . على أنه مهما كان في هذه
الصورة من أثر ، فإن الصورة التي تخلفها في العقل حقيقة أن كبريات من الجوع
والفقر ، وهو بعد ذلك العالم الكبير المتجرد عن الدنيويات ، الراضى من الحياة بكسرة
يتبلغ بها ، ثم لا يجدها ، ليس من شأنها أن تعطينا فكرة حسنة في حقيقة النزعات
الانسانية

اسماعيل مظهر

